نواميس الكون وقدرة الخالق

قيل ان احد ملوك الانكليز دخل المجمع العلمي ذات يوم وطرح على اعضائهِ هذه المسألة وهي لماذا يزيد ثقل اناء الماء اذا وضعت فيهِ سمكة ميتة ولا يزيد اذا وضعت فيهِ سمكة حيَّة فاخذ الاعضاء يتعلّلون الاسباب لذلك ويتفننون في طرق التعليل ويؤلفون المقالات والشروح الطوال الى ان خطر لواحد منهم ان يضع سمكةً في اناء فيهِ ماء فوجد ان ثقل الاناء يزيد قدر ثقل السمكة سواء كانت حية او ميتة فذهب تعب اولئك العلماء في الشرح والتعليل عبثًا . ومن قبيل ذلك ما يُروى عن اراغو العالم الفلكي الشهير وهو انهُ اتى المجمع العلمي الفرنسوي مرةً وكان الاعضاء مجتمعين فيهِ فرأى امام الباب جرَّةً فيها ماء والشمس مشرقة على جانب منها وهو سخن بحرارة الشمس والجانب الآخر بارد فادار الجرَّة حتَّى صار جانبها البارد في الشمس والحار في الفيء ثم دخل المجمع وقال للاعضاء انني رأيت الساعة عجبًا وهو جرة جانبها الذي في الشمس بارد والذي في الفيء سخن فما عسى ان يكون سبب ذلك فخرج الاعضاء ورأوا الجرة فاذا هي كما قال فاتوا بآلات قياس الحرارة وجعلوا يقيسون حرارتها وبرودتها والَّف بعضهم المقالات الضافية الذيول في تعليل هذه الحادثة الغريبة ولم يقفوا على البحث والتعليل حتَّى دخل الخادم واخبرهم ان اراغو ادار الجرَّة بيدهِ قبلما دخل المجمع

وما حدث في المجمع العلمي الانكليزي وفي المجمع العلمي الفرنسوي يحدث يومًا بعد آخر في جهات مختلفة من المسكونة فيختلق أُناس الخوارق عن قصد او غير قصد ويلقونها على العلماء طالبين منهم تعليلها فلا يكون جواب العلماء عليها الاَّ طلب اثباتها اولاً فان أُثبتت اثباتًا ينفي كل ريب نظروا بعد ذلك في عللها وفي الغالب توجد عللها في نواميس الكون المعروفة . ويراد بنواميس الكون القوانين التي رأينا المادَّة خاضعة لها او جارية بحسبها كقولنا ان الجسم المرن ينعكس عمَّا يقع عليهِ وتكون زاوية الوقوع وزاوية الانعكاس متساويتين وانا غاص جسم ثقيل في الماء خفَّ ثقله بمقدار ما يعادله من الماء واذا فركت الكهربا صارت تجذب الاجسام الخفيفة . وانا أُحمي قضيب من الحديد طال واذا بردَ قصر الى غير ذلك من الاحكام المدوَّنة في كتب العلوم الطبيعية . فاذا روى لنا احد حادثة مخالفة لهذه النواميس او منافضة لها كأن قال رأيت جسمًا مرنًا يقع على جسم آخر مرن ولا ينعكس عنهُ او ينعكس عنهُ بزاوية اكبر من زاوية الوقوع او رأيت جسمًا يغوص في الماء ولا يخف بل يثقل

ورأيت الحديد يقصر اذا أُحمي لم تكن مطالبين بتصديقهِ لاسيَّما وان كثيرين رووا امورًا خارقة مثل هذه ثم ثبت انهم كانوا مخدوعين او خادعين . واما اذا رأى هذه الحوادث جمهور من العلماء المحرِّين وكرَّروا البحث والتنقيب فوجدوا انها صحيحة لا مرية فيها لزمنا تصديقهم وتعليلها بالنواميس الطبيعيَّة المعروفة فاذا كفت لتعليلها فبها والاَّ وجب ان نسلِّم بوجود نواميس اخرى تعلَّل بها . مثال ذلك ان المعدن يتمدَّد اذا سخن و يتقلَّص اذا برد و بعد ان ثبت ذلك بالاستقراء وتقرَّر في كتب الطبيعيات وجد بعض العلماء ان النكل والكوبلت ومعادن اخرى تتمدَّد حينما تبرد اكثر ممَّا كانت متمددة وهي سخنة سائلة ولدى اعادة البحث والتنقيب وجد ان ذلك ناموس عام لجميع المعادن التي تسيل بالحرارة ثم تتبلور حينما تبرد فان جرمها يكبر قليلاً حينئذٍ مع انها تكون ابرد منها وهي سائلة

كذلك من النواميس المقرَّرة ان جميع الحيوانات اما ذكور واما اناث واما خناثى وان الاناث لا تلد ما لم تتزاوج هي والذكور . وقد رأى العلماء منذ مدة ان نوعًا من الحشرات تلد اناثًا بدون مزاوجة الذكور وتكون اولادها اناثًا فقط فتلد بلا ذكر وهكذا الى ان تلد اناثًا وذكورًا فتتزاوج وتلد اناثًا فقط وهذه تلد اناثًا اخرى وهلمَّ جرًّا الى ان تلد اناثًا وذكورًا . فلهذه الحشرات ناموس خاص بها يخالف الناموس العام . وجميع الموجودات سواء كانت جمادًا او نباتًا او حيوانًا وسواء كان الحيوان ناطقًا او غير ناطق جارية بموجب نواميس سنَّها لها الخالق سبحانهُ واذا رأينا نوعًا منها جاريًا على غير النواميس المعروفة فلهُ ناموس آخر كان غير معروف عندنا فنعدهُ حينئذٍ بين النواميس المعروفة . وعليهِ لا يستطيع احد من العلماء ان يجزم بان النواميس المعروفة الآن هي كل نواميس الكون ولا يمكن ان يوجد ناموس آخر غيرها . ولكن العلماء لا يسلِّمون بكل دعوى ولاسيَّما اذا كانت مخالفة للنواميس المعروفة ما لم يتأكدوا صحتها اولاً . فان قال قائل انني وجدت نوعًا من الدود يعيش في النار ولا يموت وجب الحذر من التسليم بصحة قولهِ لانهُ مخالف للنواميس المعروفة واما اذا ثبت بالامتحان المتواتر ان هذا الدود يعيش في النار وجب التسليم بذلك ويكون لهذا النوع من الدود ناموس خاص بهِ او يكون ثمَّ اسباب اضافية ابطلت فعل النار بهِ كأن يفرز الدود وهو في النار مادَّةً غير موصلة للحرارة فتقيهِ فعل النار بهِ

وقولنا ان كل ما في الكون تابع لنواميس مقرَّرة لا يفيد اننا نعرف كل هذه النواميس فاننا نعرف اليوم من نواميس الكون اكثر من اسلافنا ولا يبعد ان نعرف غدًا اكثر ممَّا نعرف اليوم . ولا يفيد ايضًا اننا نعرف كل نتائج هذه النواميس لانهُ متى تعدَّدت التواعل فالصور

الحادثة من تعددها كثيرة جداً فوق الحصر مثالهُ ان جلمود الصخر الذي يحطُّهُ السيل من علٍ يعرّض لناموس الجاذبيّة والاحتكاك وفعل الماء والهواء الميكانيكي والكيماوي وفعل الحر والبرد والمكروبات المختلفة ففعل بهِ على ضروب شتّى بحسب كثرتها وقلتها وكبرهِ وصغرهِ وصلابتهِ ولينهِ حتّى يندر ان يوجد حجران بشكل واحد تماماً فيتعذّر علينا ان نعرف مصير هذا الحجر او نتيجة فعل هذه الفواعل بهِ . ولا يفيد ايضاً انهُ يستحيل على الخالق سبحانهُ ان يخالف هذه النواميس متى اراد . ولكنّ العلماء في ذلك على قسمين قسم يقول ان المخالفة المذكورة هي ناموس آخر غير معروف عندنا وقسم يقول بل في خروج وتخلّي عن النواميس الطبيعيّة لغاية خصوصية ولكنّ القسمين متفقان على وجوب البحث والتدقيق عن صحة حدوث المخالفة المذكورة قبل التسليم بها . والناس كلهم خاصتهم وعامتهم جارون على هذه القاعدة في جميع معاملاتهم فاذا قال لهم قائل ازرعوا النمل في اطيانكم فينبت غنماً لم يصدقوهُ ولم يتكلّفوا مؤونة الامتحان لان قولهُ هذا مخالف لاختبارهم واختبار اسلافهم واختبار الناس عموماً . واذا قال لهم اخلطوا القمح بالزيت وازرعوهُ فينبت قطناً لم يصدقوهُ ايضاً لانهُ مخالف لاختبارهم واختبار غيرهم واذا قال بلّوا الذرة الشامية بقليل من الخل وازرعوها فتنبت ذرة اميركية قبل بعضهم قولهُ وحسبوا انهُ يستحق الامتحان . وكذا اذا قال قائل اطعموا الخيل ملحاً فقط فتسمن لم يصدق قولهُ احد واما اذا قال اخلطوا علفها بقليل من الملح وكسب القطن فتسمن ويلمع جلدها قبلوا قولهُ وحسبوا انهُ يستحق الامتحان

ولا يحق لاحد ان يحكم حكماً باتّاً باستحالة حادثة من الحوادث الاّ اذا كانت مناقضة للبديهيات فوجود الدودة الحيّة في قلب بلاطة الفرن الذي سئلنا عنهُ منذ ثلاثة اشهر غير مناقض للبديهيات فهو غير مستحيل ولكنهُ مخالف لكل النواميس المعروفة فيمكننا ان نقول انهُ « يكاد يكون ضرباً من المحال » كما قلنا في الجزء الاوّل من هذه السنة . ولا بدّ من الحذر في تصديق كل ما يروى من هذا القبيل الى ان يتفق لعلماء الحيوان والحياة تفحّص هذه المسائل جيداً . وقس على ذلك جميع الخوارق فان كتب الوثنيين والهجّ والسذّج مشحونة بها واذا صدقنا عشر معشارها لزمنا ان نؤلّه الحجارة والانهار والاشجار فلا يليق بعاقل ان يسلّم بصحة شيء منها ما لم تقم عندهُ ادلة مقنعة على صحتهِ

هذا وقد كتب الينا احد الادباء رسالة طويلة مفادها انهُ لا يجوز لنا الارتياب في وجود الدودة حيّة في بلاطة الفرن لئلاّ نكون قد ارتبنا بقدرة الله الذي شفق عليها وحفظها حيّة . فلتكن هذه النبذة جواباً لهُ ولامثالهِ